



يقول الأديب والمفكر البريطاني الشهير ألدوس هكسلي - صاحب الرواية المعروفة 'عالم جديد شجاع؟ - إن 'الدرس الوحيد الذي نتعلم من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ'! وهنا تكمن الكارثة، فكم من مصائب التاريخ تتكرر أمام أعيننا دون أن يستفيد من تجارب التاريخ أحد. لن نذهب بكم إلى التاريخ القديم أيها السوريون، بل إلى التاريخ الطازج جداً.

سنذهب بكم إلى جاركم العراق، الذي يمكن أن يكون عبرة لمن أراد أن يعتبر، كي لا نكرر لاحقاً مقولة الإمام علي (رضي الله عنه)، عندما قال: 'ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار'.

ظن العراقيون الجدد الذين جاءوا على ظهور الدبابات الأمريكية، وبمؤازرة حليفهم التاريحي إيران، أنه بمجرد إسقاط نظام الرئيس الراحل صدام حسين، سيطيب لهم العيش في العراق، وسيحکمون البلاد على طريقتهم. لقد احتفل حلفاء أمريكا وإيران 'باتتصارهم' العظيم عام 2003، وأقاموا الأفراح واللاليالي الملاحم بتحرير العراق من النظام السابق.

وليتهم توقفوا عند الاحتفال فقط، بل راحوا يجتثون كل ما كان له علاقة حتى لو بعيدة جداً بالنظام القديم، فسنو ما يسمى بقانون 'اجتثاث البعث'، وتمكنوا من خلاله من عشرات الآلاف من البعثيين القدامى، الذين كانت علاقتهم بالبعث علاقة مصلحة بالدرجة الأولى، كي يحفظوا رقابهم ولقمة عيشهم في ظل حكم حزب فاشي جائر بكل المقاييس.

فمن المعلوم أن مئات الآلاف من الناس ينضمون لهذا الحزب العربي أو ذاك - ليس إيماناً بمعتقداته ومنطلقاته ومبادئه - بل لأن بعض الأحزاب، وخاصة حزب البعث، كان يعتبر كل من لا ينضم إلى صفوفه 'خائناً' و'عميلاً للإمبريالية والصهيونية العالمية'.

لقد راح 'العراقيون الجدد' يسومون 'المهزومين' سوء العذاب والملحقة انتقاماً وتكريراً لنظام فاشي جديد.

لا بل اعتبروا الفريق 'المهزوم' جديراً بالسحق والإقصاء!

لكن دعونا ننظر إلى حصيلة تجربتهم في 'الاستئصال' على مدى أكثر من عشر سنوات.

ماذا أنجز النظام العراقي الجديد 'المنتصر' بقوة أمريكا وإيران؟

هل ساد السلام والوئام في بلاد الرافدين؟

هل استعاد العراق مجده السابق؟

هل نجح النظام الجديد حتى في تأمين الكهرباء والماء للشعب العراقي؟

هل استطاع أن يؤمن لل العراقيين الوقود الذي يملك العراق واحداً من أكبر الاحتياطات في العالم؟

هل استطاع 'المنتصرون' أن ينظفوا الشوارع؟

هل من أسبوع منذ أكثر من عقد من الزمان دون أن يسقط في العراق مئات القتلى والجرحى جراء التفجيرات والعمليات الإرهابية؟

الجواب على الأسئلة آنفة الذكر سيكون حتماً 'لا'.

هل تعلمون أن العراق الذي تبلغ ميزانيته السنوية، بسبب ثروته النفطية الهائلة، أكثر من مئة وخمسة وعشرين مليار دولار، لم يستطع حتى الآن أن يؤمن الكهرباء لل العراقيين؟!

ألا تغط معظم المناطق العراقية في ظلام دامس، بسبب انقطاع الكهرباء؟!

هل يشرب العراقيون ماء نظيفاً؟!

بالطبع لا، فمعظم المياه التي يشربها العراقيون مياه تسبب السرطان لاحتواها على كميات كبيرة من القاذورات، خاصة القسم القادم من تركيا بسبب تلوث المياه بالكثير من الآفات والأوساخ والنفايات؟

ولو عرف الشعب العراقي نوعية المياه التي يشربها لرفع ألف الدعاوى على حكومته. وحدث ولا حرج عن نظافة العراق، فقد فازت العاصمة بغداد قبل فترة بلقب 'أوسخ مدينة في العالم'!

لماذا فشل النظام العراقي الجديد بالنهوض بالبلاد واستثمار 'النصر العظيم'، الذي يزعم أنه حققه على النظام السابق؟

السبب بسيط جداً: لأنه حاول أن يفرض إرادته، وينتقم من قسم كبير من العراقيين، دون أن يدرى أن بلداً كالعراق مكون من أعرق ومذاهب وطوائف وقبائل مختلفة، ولا يمكن أن يستقر، أو ينهض إذا لم يشعر كل مكونات العراق بأنهم منتصرة ومتتساوون وجديرون بحقهم الكامل بالعيش في وطنهم.

إن سياسة النظام الجديد، التي قامت على الإقصاء والبغض والظلم لا يمكن أن تنتج سوى دولة فاشلة متراهنة غير قادرة على تأمين أبسط مستلزمات الحياة لشعبها، لا بل مهددة أيضاً بالتفكك والانهيار والتشرذم إلى أعرق وقبائل ومذاهب متناحرة.

يكفي أن يكون لديك في هذا العصر عشرة بالمائة من السكان مظلومون ومهمشون ومحبوتون حتى يحولوا حياة أي دولة إلى جحيم مقيم.

من الخطأ الفادح أن ينتصر طرف على طرف في بلد كالعراق أو سوريا، خاصة في هذا الزمن الذي باتت فيه الشعوب قادرة على الجهر بمظالمها في عصر السمات المفتوحة، ناهيك عن أنها تخلصت من خوفها، وأصبحت قادرة على زلزلة الأرض تحت أقدام جلاديها وظالميها.

أيها السوريون - نظاماً ومعارضة وشعباً - هل تلقون نظرة سريعة على وضع جاركم العراق المزري، الذي وصل إلى ما وصل إليه من انهيار، لأن فريقاً اعتقد أنه انتصر على آخر؟

لا يظنن أحد في سوريا أنه قادر على الانتصار على الآخر، لأن وضع سوريا مشابه لوضع العراق، من حيث تركيبته المذهبية

والعرقية والقبائلية.

من السذاجة أن يعتقد النظام أنه قادر على الانتصار على معارضيه، ومن السذاجة أن يعتقد المعارضون أنهم قادرون على الانتصار على أتباع النظام، لأن ذلك سيدفع الفريق المهزوم، أيًّا كان، تحت الأرض ليتحول إلى حركة تخريبية تدميرية إرهابية تزلزل الأرض تحت أقدام ‘المنتصرين المزعومين’.

لا أحد يطلب منكم طبعًا أن تستوعبوا القتلة والمجرمين الذين ارتكبوا جرائم فاشية بحق السوريين، فهو لا جديرون بأقصى أنواع المحاكمات.

لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار إشراك كل فئات الشعب السوري في بناء دولة جديدة لكل أبنائها، وليس حكراً على طائفة أو مذهب على حساب الآخر.

إن الخطاب الإقصائي الانتقامي، الذي يتصدق به النظام أو معارضوه في سوريا كفيل بأن يطيل أمد الأزمة إلى عشرات السنين.

والأنكى من ذلك أن سوريا ليست غنية كالعراق، فميزانيتها السنوية أقل من عشر الميزانية العراقية، مما يعني أن البلاد ستذهب إلى الجحيم اقتصاديًّا لو استمر الوضع على حاله.

هل لاحظتم كيف أن العراق صاحب الميزانية الضخمة لم يستطع أن يؤمن أبسط الحاجيات لشعبه بسبب عدم الاستقرار الأمني والسياسي الناتج عن تحكم فئة بفئة؟

فكيف سيكون الوضع في سوريا إذا ما سار على النهج العراقي الانتقامي الاستئصالي يا ترى؟ قد يقول البعض إن الوضع في سوريا مختلف عن وضع العراق، ففي العراق تم إسقاط النظام بواسطة قوة خارجية، ولم تكن ثورة على النظام، كما هو الحال في سوريا. وهذا صحيح.

لكن الثورة لا يمكن أن تنجح، في ما لو اتبعت النموذج العراقي في الإقصاء والاستئصال، فباستثناء الذين تلطخت اياديهم بدماء السوريين، فإن كل فئات الشعب السوري لها كامل الحق في بناء الدولة الجديدة، بعيداً عن الإقصاء والإبعاد والانتقام. وليتنا نتعلم من تجارب أمريكا اللاتينية التي تعالت على جراحها وكوراث وجرائم العسكر، وأعادت اللحمة إلى أوطانها بسواعد كل أبنائها على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم.

باختصار:

إذا لم يخرج كل السوريين من المحنـة الحالية منتصرين، على مبدأ كسنجر الشهير، فليبشرـوا بأنـا تطول مـحنـتهم، نظامـاً ومعـارضـة وشعـباً، لـعـقود وأـجيـالـ، هـذا طـبعـاً إـذا بـقيـتـ هـنـاكـ دـولـةـ اـسـمـهاـ سـورـياـ.

القدس العربي

المصادر: